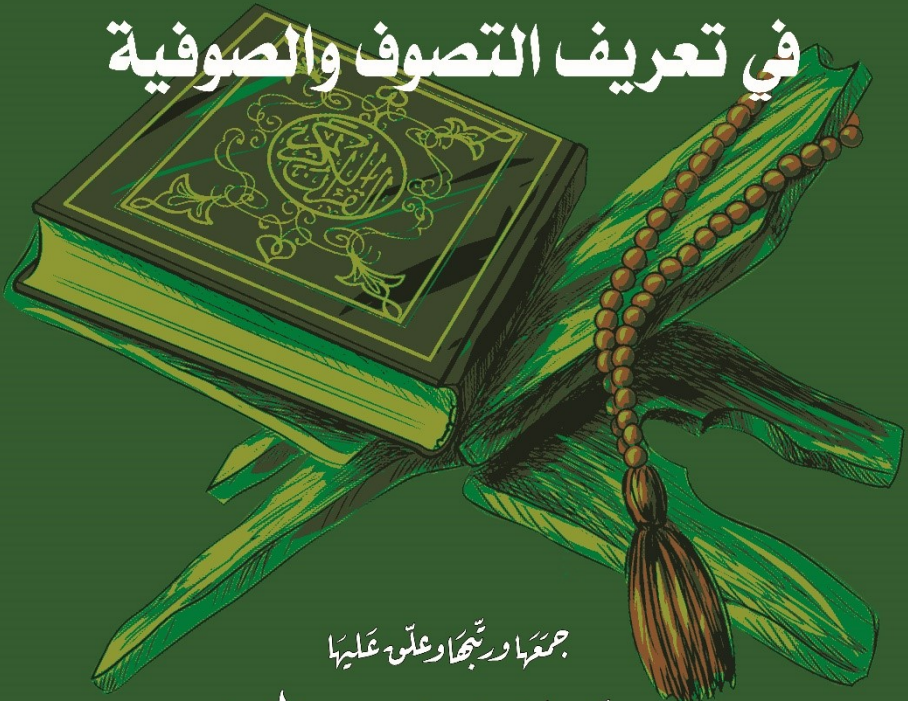


سلسلة رسائل النور القادرية



الرسالة الحذيفية

في تعريف التصوف والصوفية



جمعتها ورتبها وعلّم عليها

مخلف العلي القادري الحسيني

دار النور القادرية

سلسلة رسائل النور القادرية

الرسالة الحذيفة

في تعريف التصوف والصوفية

جمعتها وترجمها وعلّق عليها

مخلف العلي القادري الحسيني

دار النور القادرية

✽ اسم الكتاب: الرسالة الحذيفية في تعريف التصوف والصوفية.

✽ اسم السلسلة: رسائل النور القادرية.

✽ المؤلف: مخلف يحيى العلي القادري.

✽ الناشر: دار النور القادرية للنشر والتوزيع - سورية - دمشق.

✽ عدد الصفحات: ٨٠

✽ رقم الطبعة: الطبعة الأولى.

✽ تاريخ الطبعة: ١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م.

يطلب من: دار النور القادرية للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - ريف دمشق : ٠٠٩٦٣٩٩٧٦١٦٦٤٥

للتواصل مع المؤلف: هاتف وواتساب: ٠٠٢٠١٢٠٤١٩٣٦٢٣

الموقع: www.alkadrialalia.com - البريد الإلكتروني: mkhlef@hotmail.com



هَذَا الْكِتَابُ بِرِعَايَةِ وَإِشْرَافِ

جميع الحقوق محفوظة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان
على سيد الأولين والآخرين، المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه رسالة مختصرة أبين فيها ما يحتاجه كل مسلم وسالك
لمعرفة علم التصوف، ولمعرفة حقيقة الصوفية، ولقد بذلت كل
جهدي لتوضيح كل ما يتعلق بعلم التصوف من حيث التعريف
والنشأة، والموضوع والثمره والغاية، وأقوال العلماء والعارفين فيه
وبينت حكمه وحكم الدخول فيه، وبينته قواعده وخصاله
وأركانه، حتى يكون واضحاً جلياً لكل مسلم.

وسعيت جاهداً لتنقيته من كل ما دخل فيه، رداً على أعدائه
وبراءة من أذعيائه، الذين سعوا جاهدين لتشويه سيرته وسيرة
رجالهم، الذين أسسوه وأقاموه على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى
الله عليه وآله وسلم، فأسأل المولى عز وجل أن يوفقني لما يحبه
ويرضاه، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

تعريف التصوف والصوفي

تعددت الأقوال في تعريف التصوف، وجميعها تنصب في مفهوم واحد، وتخرج من مشكاة واحدة، وما تعدد الأقوال في تعريفه إلا دلالة على جلاله قدره وعلو منزلته، وإلا لما تفنن العلماء في تعريفاته، فهو أكثر العلوم في معانيه، وسبب اختلافهم يعود إلى اختلاف رؤيتهم له، وأحوالهم فيه، فكل وصف جهة معرفته به، وحال تذوقه له، وما مثلهم في ذلك إلا كقوم اجتمعوا حول جبل شاهق عظيم، فأرادوا وصف هذا الجبل، فكل واحدٍ منهم سيصفه من جهته التي يرى ويلمس ويدرك، وقد

ذكر الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء تعريفاً للتصوف في كل ترجمة من تراجم كتابه تقريباً، وقد احتوى كتابه أكثر من ألفي ترجمة.

وأما القشيري فلقد ذكر في رسالته أكثر من خمسين تعريفاً من الصوفية المتقدمين.

بل ذكر السراج في اللمعة أن تعريفاته تتجاوز مائة تعريف^(١).

(١) كتاب اللمع للطوسي ص ٤٧.

يقول الشيخ السهروردي: «أقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول بل ذكروا أن الأقوال الماثورة في حد التصوف زهاء الألفين»^(١).

ويقول الشيخ أحمد زروق: «وقد حُدَّ التصوف ورُسمَ وفُسرَ بوجوه تبلغ نحو الألفين مرجعها كلها صدق توجهه إلى الله وإنما هي وجوه فيه»^(٢).

وسنذكر أهم وأشهر التعريفات المنقولة عن القوم رضي الله عنهم:

يعرفه الإمام الجنيد فيقول: «التصوف استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق ذني».

ويقول أيضاً: «التصوف: ذكرٌ مع اجتماع، ووجدٌ مع استماع، وعملٌ مع إتباع»^(٣).

ويقول الشيخ معروف الكرخي: «التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق»^(٤).

(١) كتاب عوارف المعارف ص ٨١.

(٢) قواعد التصوف القاعدة الثانية.

(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٤٢).

(٤) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٤١).

ويقول حجة الإسلام الإمام الغزالي: «التصوف: هو تجريد القلب لله تعالى واحتقار ما سواه»^(١).

ويقول الشيخ عبد القادر الجيلاني: «التصوف: الصدق مع الحق، وحسن الخلق مع الخلق»^(٢).

ويقول محمد بن علي الكتاني: «التصوف: خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف»^(٣).

ويقول الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي: «التصوف: هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطناً»^(٤).

وعرفه الإمام أبو الحسن الشاذلي فقال: «التصوف: تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية»^(٥).

ويقول الإمام أبو بكر الشبلي: «التصوف الجلوس مع الله بلا هم»^(٦).

(١) كتاب حكايا الصوفية ص ٢٥-٢٦.

(٢) كتاب الغنية لطالبي طريق الحق ص ٦٠٦.

(٣) الرسالة القشيرية (٢/٣٩٧).

(٤) رسائل ابن عربي: ٥٤١.

(٥) كتاب نور التحقيق للشيخ حامد صغر ص ٩٣.

(٦) الرسالة القشيرية (٢/٤٤٢).

ويقول الإمام الداراني: «التصوف أن تجري على الصوفي أعمال لا يعلمها إلا الحق وان يكون دائماً مع الحق على حال لا يعلمها إلا هو»^(١).

وعرفه عمرو بن عثمان المكي فقال: التصوف أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى به في الوقت»^(٢).

ويقول الشيخ أحمد بن زروق: «التصوف علم قصد لإصلاح القلوب وإفرادها لله تعالى عما سواه، والفقهاء لإصلاح العمل، وحفظ النظام وظهور الحكمة بالأحكام والأصول وعلم التوحيد لتحقيق المقدمات بالبراهين، وتحلية الإيمان بالإيقان، كالطب لحفظ الأبدان، وكالنجوى لإصلاح اللسان»^(٣).

ويقول الشيخ ابن عجيبة: «التصوف هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل وأوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة»^(٤).

(١) كتاب المدخل إلى التصوف للمهدي ص ٧٩.

(٢) كتاب المدخل إلى التصوف للمهدي ص ٧١.

(٣) كتاب قواعد التصوف قاعدة ١٣.

(٤) كتاب معراج التشوف إلى حقائق التصوف ص ٤.

وعرفه شيخ الإسلام زكريا الأنصاري فقال: «التصوف علم يعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن، لنيل السعادة الأبدية»^(١).

ويقول ابن خلدون في مقدمته: «العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة»^(٢).

(١) هامش الرسالة القشيرية ص ٧.

(٢) تاريخ ابن خلدون (١/٦١١).

تعريف الصوفي

يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني: «الصوفي: فهو في الأصل صوفي على وزن فوعل، مأخوذة من المصافاه، يعني عبد صافاه الحق عز وجل، ولهذا قيل: الصوفي من كان صافياً من آفات النفس، خالياً من مذموماتها، سالكاً لحميد مذاهبه، ملازماً للحقائق، غير ساكن بقلبه إلى أحدٍ من الخلائق»^(١).

ويقول الشيخ أحمد الرفاعي الكبير: «الصوفي من صفى سرُّه من كدورات الأكوان، وما رأى لنفسه على غيره مزية»^(٢).

وقال رضي الله عنه في حكمه: «الصوفي: لا يسلك غير طريق الرسول المكرم صلى الله عليه وآله وسلم، فلا يجعل حركاته وسكناته إلا مبنية عليه».

ويقول الإمام السهروردي: «الصوفي هو الذي يكون دائم التصفية، ولا يزال يصفى الأوقات من شوب الأكدار بتصفية القلب عن شوب النفس، ويعينه على كل هذا دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار ينقي الكدر، وكلما تحركت النفس وظهرت

(١) الغنية ج٢ ص ٢٧٢.

(٢) البرهان المؤيد ص ٦٩.

بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة، وفر منها لربه، فهو قائم بربه على قلبه، وقائم بقلبه على نفسه قال الله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾^(١) وهذه القوامية لله على النفس هي التحقق بالتصوف»^(٢).

وقال الإمام سهل بن عبد الله التستري: «الصوفي: من صفا من الكدر وامتلاً من الفكر وانقطع إلى الله من البشر واستوى عنده الذهب والمدر»^(٣).

ويقول الإمام أبو علي الروذباري: «الصوفي: هو من لبس الصوف على الصفاء وأطعمه الهوى ذوق الحفاء وكانت الدنيا منه على القفا وسلكت منهاج المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم»^(٤).

ويقول السراج: «إذا قيل لك: الصوفية من هم في الحقيقة؟ صفهم لنا فقل: هم العلماء بالله وبأحكام الله، العاملون بما علمهم الله تعالى، المتحققون بما استعملهم الله عز وجل»^(٥).

(١) سورة النساء، الآية: (١٣٥).

(٢) عوارف المعارف.

(٣) التعرف على مذهب أهل التصوف ص ٩.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ج ٢/ص ٢٩٩.

(٥) اللمع ص ٤٧.

ويقول ذو النون المصري: «الصوفي إذا نطق أبان منطقته عن الحقائق وإذا سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق»^(١).

وقيل الصوفية: أوفر الناس حظاً في الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأحقهم بإحياء سنته، والتخلق بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من حسن الاقتداء به وإحياء سنته»^(٢).

وفي هذا القدر الذي نقلناه كفاية لمعرفة التصوف والصوفي، نسأل الله تعالى أن يعرفنا بالتصوف ظاهراً وباطناً.

(١) كشف المحجوب للهجويري، ص ٣٦.

(٢) عوارف المعارف ص ٢٢٩.

تاريخ نشأة التصوف

اعلم أخي السالك وفقني الله تعالى وإياك: أن التصوف في حقيقته، ووفق ما بيناه في التعريف إنما يرجع في أصله ومنشأه إلى عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وكل قواعده وأسسها مستمدة من الشريعة المطهرة، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى في موضعه.

واعلم أن الذي جاءنا من التشريع في الكتاب والسنة، وما نزل في الكتب السماوية من قبلنا، وكل ما بعث الله به رسوله وأنبياءه مبلغين عن عز وجل، إنما هو على ثلاثة أقسام وهي:

أولاً: قسم يتعلق بأعمال المكلف: ويشتمل هذا القسم على الأحكام الخاصة بعلاقة المكلف مع نفسه وغيره وربّه، والنصوص التي جاءت في هذا الخصوص كثيرة جداً، وتشمل كل آية وحديث يتكلم في موضوع الحلال والحرام والمستحب والمكروه والمندوب والمباح.

كما يشمل جميع العبادات والمعاملات والحدود والجنايات والأحوال الشخصية والبيوع والزراعة وأركان الإسلام، والحكم والقضاء وغيره، ويسمى هذا القسم بعلم الفقه والأصول.

ثانياً: قسم يتعلق بالعبقيدة والتوحيد: ويشتمل هذا القسم على ما يتوجب على الإنسان الاعتقاد والإيمان به، من إلهيات وسمعيات وغيبيات، والنصوص التي جاءت في هذا الخصوص كثيرة جداً.

وتشمل كل آية وحديث يتكلم في موضوع الإيمان وأركانه، وصفات الألوهية والربوبية، والموت وما بعده، والروح وما يتعلق بها، ويسمى هذا القسم بعلم العقيدة أو علم التوحيد أو علم الكلام.

ثالثاً: قسم يتعلق بنفس المكلف: ويشتمل هذا القسم على الجانب الخلقى والأدبي من حياة الإنسان في علاقته مع الآخرين، ويشمل كل ما يتعلق بنفسه من حيث وجوب تزكيتها من كل الصفات الذميمة السيئة، وتحليتها بالصفات الحميدة.

والنصوص التي جاءت في هذا الخصوص كثيرة جداً، وتشمل كل آية وحديث يتكلم عن الجانب الأخلاقي والآداب الإسلامية، وقد بين النبي صلى الله عليه وآله هذا القسم بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»^(١).

(١) رواه مالك من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذه الأقسام الثلاثة كلها تتجلى في حديث جبريل عليه السلام من رواية مسلم عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحَجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْخُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّيْءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي

مِنِ السَّائِلِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ
يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»

فالإسلام يمثل القسم الأول وهو الشريعة.

والإيمان يمثل القسم الثاني وهو الطريقة.

والإحسان يمثل القسم الثالث وهو الحقيقة.

يقول المحافظ الإمام الشيخ محمد صديق الغماري: «فلتعلم

أن الطريقة أسسها الوحي السماوي، في جملة ما أسس من الدين
المحمدي، إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان
الدين الثلاثة، التي جعلها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما
بينها واحداً واحداً ديناً فقال: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُكُمْ
دِينَكُمْ».

فغاية ما تدعو إليه الطريقة وتشير إليه هو مقام الإحسان،
بعد تصحيح الإسلام والإيمان، ليحرز الداخل فيها والمدعو إليها
مقامات الدين الثلاثة، الضامنة أيضاً لمحزها والقائم بها
السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، والضامنة أيضاً لمحزها كمال
الدين، فإنه كما في الحديث عبارة عن الأركان الثلاثة، فمن أدخل
بمقام الإحسان الذي هو الطريقة، فدينه ناقص بلا شك؛ لتركه

ركناً من أركانه، ولهذا نص المحققون على وجوب الدخول في الطريقة، وسلوك طريق التصوف، وجوباً عينياً واستدلوا على الوجوب بما هو ظاهر عقلاً ونقلًا^(١).

فالقسم الثالث (الإحسان) هو الذي يقوم عليه علم التصوف، ولو رجعت إلى تاريخ هذه الأمة الفاضلة، لوجدت أنّ العلماء رضي الله عنهم قد تخصصوا في كل العلوم، وعلى رأسهم الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

فتميز أبو بكر مجلّمه وخلقه وكرمه وعبادته وإيمانه، وتميز عمر بعدله، وعثمان بجيائه، وعلي بقضائه وعلمه وشجاعته، وزيد بالفرائض، ومعاذ بالحلال والحرام، وابن عباس بالعلم، وابن مسعود بالقرآن، وأبو عبيدة أمين الأمة، وخالد بن الوليد بجهاده، وكذلك سعد بن أبي وقاص مستجاب الدعوة، وعبد الله بن عمرو بن العاص بعبادته، وأبو الدرداء وأبو ذر الغفاري بالزهد، وأبو هريرة برواية الحديث، رضي الله عنهم أجمعين.

ثم توسعت الأمصار واتسعت رقعة الدولة وكثر المسلمون، وكثر العلماء وتخصص التابعون ومن بعدهم بأصناف العلوم.

(١) كتاب الانتصار لطرق الصوفية ص ٥.

فنشأ علم النحو، وعلم الفقه، وعلم التوحيد، والأصول،
والتفسير، والحديث، والمنطق، ومصطلح الحديث، والمواريث،
فتخصص البعض بعلوم الفقه وأصوله كأبي حنيفة ومالك
والشافعي وأحمد والليث بن سعد والشعبي وسعيد بن جبير
وسعيد بن المسيب رضي الله عنهم أجمعين.

وتخصص البعض بعلم الحديث كمالك والأمام أحمد ويحيى
بن معين والبخاري ومسلم والترمذي وأبو داوود والنسائي وابن
ماجة والبيهقي والدارقطني رضي الله عنهم.

وتخصص البعض بعلوم الكلام والتوحيد والفلسفة،
وتنوعت العلوم وانتشرت في الأمصار الإسلامية.

وكان من أهم العلوم التي انتشرت وتخصص بها الخواص
من هذه الأمة هو علم الأخلاق والتزكية، وأحوال النفس والزهد
والرقائق، وكان من أبرز المتخصصين به هو الحسن البصري
ومعروف الكرخي والجنيد والسري ومالك بن دينار والفضيل بن
عياض وذو النون المصري.

فكما كان ابن مسعود معلماً للقران وله مدرسته، وابن
عباس مفسراً لكتاب الله وفتيها، وزيد بن ثابت فقيها وعالماً

بالمواريث، فقد كان لسيدنا علي ابن أبي طالب مدرسته العظيمة في الزهد والسلوك، وكذلك كان لعبد الله بن رواحة وأبو ذر وأبو الدرداء مدارسهم في الزهد الذي نشره بين الناس. فأخذ عنهم الحسن البصري، وعروة بن الزبير، وأويس القرني، ثم إبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، والجنيد البغدادي، والشبلي، وسري السقطي، وذو النون المصري، وهؤلاء هم الذين أسسوا علم التصوف. فالتصوف علم كبقية العلوم له أصوله وله أسسه وقواعده وهو نابع من الكتاب والسنة، فهو كما قلنا القسم الثالث من علوم الشريعة وهذه هي حقيقته، بغض النظر عما دخل فيه من بدع وأكدار ومخالفات. فهذا الأمر أصاب جميع العلوم وليس التصوف فحسب، ولكن المهم أن نشأته وأصوله صحيحة وفق الكتاب والسنة، فالصحابا وإن لم يتسموا باسم المتصوفة فقد كانوا صوفيين بأفعالهم وأقوالهم وأحوالهم.

يقول الإمام القشيري: «اعلموا رحمكم الله تعالى أن

المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا فضيلة فوقها، فقليل لهم: الصحابة، ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة التابعين، ورأوا ذلك

أشرف سمة ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين ثم اختلف الناس وتباينت المراتب ، فقبل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين: الزهاد والعباد ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق أدعوا أن فيهم زهدا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة»^(١).

يقول ابن خلدون في مقدمته: «وهذا العلم - يعني التصوف - من العلوم الحادثة في الملة، وأصله أنّ طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق، والخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية»^(٢).

(١) الرسالة القشيرية (١/٣٤).

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٢٩.

وفي بداية القرن الثالث أصبح التصوف علماً مستقلاً له مجالسه، ثم بدأ عصر التدوين.

فكتب الحارث المحاسبي المتوفى سنة: (٢٤٣هـ) عدة كتب منها: بدء من أناب إلى الله، وآداب النفوس، ورسالة التوهم.

وكتب أبو سعيد الخراز المتوفى سنة: (٢٧٧هـ) الطريق إلى الله، وكتب أبو عبد الرحمن السلمي المتوفى سنة: (٣٢٥هـ) آداب الصوفية، وكتب أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي المتوفى سنة: (٣٧٨هـ) اللمع في التصوف.

وكتب الشيخ أبو بكر الكلاباذي المتوفى سنة: (٣٨٠هـ) كتابه التعرف على مذهب أهل التصوف، وكتب أبو طالب المكي المتوفى سنة: (٣٨٦هـ) كتاب قوت القلوب.

وفي القرن الخامس كتب أبو قاسم القشيري المتوفى سنة: (٤٦٥هـ) رسالته المعروفة بالرسالة القشيرية والتي تعتبر من أهم الكتب والمراجع في التصوف.

ثم جاء الإمام حجة الإسلام الإمام الغزالي المتوفى سنة: (٥٠٥هـ)، لينتقل بالتصوف إلى مرحلة عظيمة، فدون أعظم الكتب في التصوف من أهمها: إحياء علوم الدين، الأربعين في

أصول الدين، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، بداية الهداية، وغيرها الكثير، ويعد كتابه إحياء علوم الدين من أشهر كتب التصوف ومن أجمعها.

ثم دخل القرن السادس الهجري الذي تحول فيه التصوف إلى مدارس ومناهج منتشرة في البلاد، وبنيت له المدارس وانتشرت الأربطة في كافة البلاد الإسلامية، وبدأ في هذا القرن ظهور الطرق الصوفية التي تنسب لأصحابها الذين وضعوا القواعد الخاصة بها، واستطاعوا تثبيت أركانها بين الناس.

وكان هذا التحول في مسار علم التصوف يرجع لظهور الإمام الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه، الذي أسس مدرسته في بغداد وأسس معها الرباط، فصارت منارة يقصدها العلماء والأولياء من كل مكان، ثم بعد ذلك بدأت تنسب إليه، وينسب إليه كل من يتخرج منها،

وتعتبر الطريقة القادرية من أول الطرق الصوفية ظهوراً، وانتشاراً في البلاد كما سيأتي معنا لاحقاً، كما ظهرت بعد ذلك الطريقة الرفاعية التي تنسب لسيدي القطب الكبير أحمد الرفاعي رضي الله عنه، الذي كان مقره في البصرة.

ثم بعد ذلك انتشرت المدارس الصوفية تحت مسمى الطرق الصوفية، وظهرت البدوية والدسوقية والشاذلية والسهروردية وغيرها، وبهذا أصبح التصوف علماً مستقلاً بذاته له قواعده وأسسها واستنباطاته وعلماءه حتى عصرنا هذا.

وفي الختام نقول: يتبين لنا من خلال ما ذكرناه من نصوص أن علم التصوف ليس بعلم مبتدع ولا مستحدث، كما يدّعي من أنكره، بل هو علم شريف جليل القدر، بل يكاد يكون أجَل العلوم بعد التوحيد الخالص لله، ومن أراد الحقيقة اهتدى إليها، ومن أراد العناد فإنك لا تهدي من أحببت.

موضوع علم التصوف

أما موضوعه فهو الذات العلية، ومعرفة الله سبحانه وتعالى بالبرهان، والشهود والعيان، وأحوال القلب والنفس والروح وأفعالها.

أما معرفة الله تعالى: فمن حيث التحقق بمقام العبودية عملاً بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

والوصول لمقام الوراثة الحقيقة المتمثلة بقوله تعالى: ﴿وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢).

ثم الانتهاء بمقام الإحسان المتمثل بقوله صلوات ربي وسلامه عليه: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

وأما معرفة النفس: فمن حيث أحوالها، وطرق تزكيتها، وتنقيتها من الأخلاق السيئة، وتحليتها بالأخلاق الحسنة امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَدَا فَلَاحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(٣).

(١) سورة الذاريات: [الآية: ٥٦].

(٢) سورة البقرة: [الآية: ٣٠].

(٣) سورة الشمس: [الآية: ٩].

وأما معرفة القلب: فمن حيث أعماله وسبل اصلاحه عملاً
بقول رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ
مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ
كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

وأما معرفة الروح: فمن حيث سبل تصفيتها من
الكدورات، وتطهيرها لتكون كما خلقها ربها عز وجل نقية
طاهرة، لتكون في زمرة الأرواح الطيبة، متصلة بجبل من نور
بربها عز وجل.

(١) رواه البخاري.

غاية علم التصوف

أما غاية علم التصوف: فهي تحقيق موضوعه الذي ذكرناه فيما مضى من معرفة الله تعالى، والتحقق بالعبودية، والتحقق بالخلافة ومقام الإحسان.

وهذه الغاية تتحقق من خلال الارتقاء بالإنسان إلى تهذيب السلوك الإنساني، والسمو بالنفس البشرية بالتركيزية والتصفية والتحلية، عن طريق علاج أمراض القلوب والنفوس، وتصحيح المفاهيم والتصورات، وتقويم الجوارح وفق ضوابط الشريعة، والسمو الأخلاقي عن ملذات الدنيا وشهواتها للفوز برضا الله تعالى، ونيل سعادة الدارين.

فالغاية الكبرى من التصوف هي الوصول إلى مقام الإحسان والفوز بالمحبة والقبول والرضا والرضوان من الله جل جلاله.

ثمرة علم التصوف

أما ثمرة علم التصوف: فهي أن يفوز الصوفي الفوز برضا الحق عز وجل ومحبته، والوصول لمرتبة العبد الرباني الذي يكون لله كما يريد،

وأن يقيم على هذه الأرض الخلافة الربانية، ليحقق مراد الله عز وجل من خلقه، والاتصال والوصال بالحقيقة المحمدية التي هي مدار الخلق في هذه البشرية، والتي هي باب الله الأعظم ولا وصول من دونها.

ومن ثماره يوم القيامة أن يكون الصوفي من الذين قال الله فيهم: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١).

(١) سورة المائدة: [الآية: ١١٩].

مكانة علم التصوف

بعد أن ذكرنا وبيّنا تعريف التصوف وبيّنا موضوعه وثمرته وغايته وحاصل ذلك كله هو تزكية النفس، وتطهير القلب من الدنس، والتخلي بالأخلاق الفاضلة، والتخلي عن الأخلاق الرذيلة، يجب أن نسأل أنفسنا سؤالاً؟

أليس هذا هو مراد الله تعالى من خلقه؟ أليس هو الغاية من إرسال الرسل؟ أليس هذا هو مراد الشريعة السمحاء؟
نقول: نعم هذا هو، وهذا مطلوب من كل مسلم يدين لله بالإسلام، ويؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام!
وعليه: فإن كان علم التصوف هو تحقيق مراد الشريعة، فنستخلص من هذا كله:

أن علم التصوف بهذا المعنى الذي أوضحناه، وبهذا المقصد الذي بيناه، هو من أجل العلوم التي ينبغي على كل مسلم أن يدخل فيها، والدخول فيه هو فرض وواجب على كل مسلم ومسلمة. وذلك استجابة لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(١).

(١) سورة الشمس: [الآية: ٩-١٠].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١). وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ

وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ (٢).

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» (٣).

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ وَلَكِنَّ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ» (٤).

واليك بعض أقوال العلماء والصالحين في ذلك:

يقول الإمام مالك: «من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن

تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق» (٥).

وقال الإمام الغزالي: «الدخول مع الصوفية فرض عين إذ لا

يخلو أحد من عيب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام» (٦).

(١) سورة الأعلى: [الآية: ١٤].

(٢) سورة الشعراء: [الآية: ٨٨-٨٩].

(٣) رواه البخاري.

(٤) صحيح مسلم.

(٥) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للملا علي القاري، (١/٣٣٥).

(٦) النصرة النبوية على هامش شرح الرائية للفاسي ص ٢٦.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: «من لم يتغلغل في علمنا هذا، مات مُصرّاً على الكبائر وهو لا يشعر»^(١).

وقال السيوطي رحمه الله تعالى: «نسبة التصوف من العلوم كعلم البيان من النحو يعني هو كمال فيها ومحسن لها»^(٢).

وقال الشيخ أحمد زرُّوق رحمه الله تعالى في قواعده: «نسبة التصوف من الدين نسبة الروح من الجسد لأنه مقام الإحسان ولا معنى له سوى ذلك».

ومن خلال ما بيناه يتضح بوضوح كوضوح الشمس في رابعة النهار أن علم التصوف بمعناه الصحيح هو فرض عين على كل مسلم.

بل ولا غنى لمسلم يريد الله عن سلوك علم التصوف، فكلنا بحاجة لتصفية القلب وتزكية النفس والوصول إلى الله عز وجل والتحقق بمقام العبودية.

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٢/٤١٧).

(٢) الأشباه والنظائر ص ٤٠٥.

نسبة علم التصوف

اعلم أخي السالك وفقني الله تعالى وإياك: أن العلماء اختلفوا في سبب تسمية علم التصوف بهذا الاسم إلى أقوال كثيرة، والذين تحدثوا عن التصوف والصوفية اختلفوا في أصل هذه الكلمة واشتقاقها، كما أنهم اختلفوا في نسبة الصوفية اختلافاً كبيراً، فالمؤيدون والمعارضون للتصوف لم يتفقوا على نسبة واحدة للتصوف.

كما أن أهل التصوف أنفسهم لم يتفقوا على شيء من ذلك ولكن سنذكر أشهر الأقوال في ذلك:

أولاً: من الصفاء وهو أصح الأقوال وأرجحها:

يقول الإمام الجنيد البغدادي: «التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال من هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول في الشريعة»^(١).

(١) كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٢٥.

وقال رحمه الله تعالى: «التصوف أن يختصك الله بالصفاء
فمن صفا من كل ما سوى الله فهو الصوفي»^(١).

ويقول سهل بن عبد الله التستري: «الصوفي من صفا من
الكدر، وامتلاً من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى
عنده الذهب والمدر»^(٢).

ويقول الشيخ عبد القادر الجيلاني: «الصوفي من كان صافياً
من آفات النفس، خالياً من مذموماتها، سالكاً لحמיד مذهبها،
ملازماً للحقائق، غير ساكن بقلبه إلى أحدٍ من الخلائق»^(٣).

ويقول الإمام أحمد الرفاعي: «الصوفي من صفى سره من
كدورات الأكوان، وما رأى لنفسه على غيره مزية»^(٤).

ويقول الإمام السهروردي في عوارف المعارف: «الصوفي هو
الذي يكون دائم التصفية لا يزال يصفى الأوقات عن شوب
الأكدار بتصفية القلب عن شوب النفس ويعينه على هذه
التصفية دوام افتقاره إلى مولاه فبدوام الافتقار ينقى من الكدر،

(١) مقدمة الشيخ عبد الحليم محمود على كتاب (غيث المواهب العلمية) (٢٦/١).

(٢) كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٢٥.

(٣) كتاب الغنية لطالبي طريق الحق ص ٦٠٥-٦٠٦.

(٤) كتاب البرهان المؤيد ص ٦٩.

وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها بصيرته
النافذة وفر بها إلى ربه»^(١).

ويقول الكلاباذي في كتابه التعرف لمذهب أهل التصوف:

«إلى أن أصل الصوفية ينتسبون إلى الصفاء وأنهم سموا صوفية
لصفاء أسرارهم وشرح صدورهم وضياء قلوبهم».

ويقول أيضاً في نفس الكتاب: «قَالَتْ طَائِفَةٌ إِنَّمَا سُمِّيَتْ

الصُّوفِيَّةَ صُوفِيَّةً لصفاء أسرارها ونقاء اثارها، وَقَالَ بشر بن
الحَارِثِ الصُّوفِي من صفا قلبه لله، وَقَالَ بعضهم الصوفي من
صفت لله مُعَامَلَتَهُ فصفت له من الله عز وجل كرامته»^(٢).

ثانياً: من لبس الصوف:

وذهب قوم إلى أن كلمة الصوفية نسبة إلى الصوف وذلك
لأن النسبة إلى الصوف صوفي، ومن رجع هذا القول الإمام
السهروردي في عوارف المعارف، وابن خلدون في مقدمته،
وكذلك القشيري في رسالته، وحثهم على صحة هذه النسبة: إن
الصوف لباس الأنبياء وخاصة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله

(١) عوارف المعارف.

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٢١.

وسلم وسيدنا عيسى عليه السلام، وهو لباس الصحابة رضي الله عنهم والتابعين، والصوفية المتقدمين رحمهم الله تعالى، وأن لبس الصوف هو أقرب إلى التواضع والخمول والذل.

وقال الأمام أبو بكر الكلاباذي: «وإن جعل مأخذه

من الصوف استقام اللفظ وصحت العبارة من حيث اللغة، وجمع المعاني كلها من التخلي عن الدنيا، وعزوف النفس عنها، وترك الأوطان، ولزوم الأسفار، ومنع النفوس حظوظها، وصفاء المعاملات، وصفوة الأسرار، وانسراح الصدور، وصفة السباق»^(١).

وقال ابن عجيبة في إيقاظ الهمم في شرح الحكم: «هذا

الاشتقاق أليق لغة وأظهر نسبة، لأن لباس الصوف حكم ظاهر على الظاهر، ونسبتهم إلى غيره أمر باطن، والحكم بالظاهر أوفق وأقرب».

وقال الأمام أبو علي الروذباري: «الصوفي: هو من لبس

الصوف على الصفاء وأطعمه الهوى ذوق الجفاء وكانت الدنيا منه على القفا وسلكت منهاج المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم»^(٢).

(١) التعرف على مذهب أهل التصوف ص ٩.

(٢) المصدر السابق.

ثالثاً: نسبة لأهل الصفة:

وقال آخرون إن كلمة الصوفية نسبة إلى أهل الصّفة، وهم جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا ينزلون في مكان خلف الحجرات في المسجد النبوي، وعرف المكان باسمهم وكانوا متفرغين للعبادة وللمجاورة، وهم فقراء المهاجرين الذين ليس لهم مأوى، فلما كانت هذه الطائفة بصفة أهل الصفة فيما ذكرنا، ولبسهم وزيهم سموا وصوفية.

قال الإمام أبو بكر الكلاباذي: «وَقَالَ قَوْمٌ إِنَّمَا سَمُوا صُوفِيَةً لِقَرَبِ أَوْصَافِهِمْ مِنْ أَوْصَافِ أَهْلِ الصِّفَةِ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(١).

هذه أهم الأقوال وأرجحها في نسبة اسم الصوفية، وهناك أقوال أخرى غير التي ذكرناها من أهمها: أنهم سموا صوفية نسبة إلى الاتصاف بالصفات الحميدة وترك الصفات الذميمة؟

وقيل: نسبة إلى كلمة (سوفيا) اليونانية ومعناها الحكمة، وقيل من الصوفة لأنه مع الله كالصوفة المطروحة لا تدبير له، إنما التدبير لله.

(١) التعرف على مذهب أهل التصوف ص ٢١.

وقيل إنه من الصفة إذ جُمِلتَه الاتصاف بالمحامد وترك
الصفات المذمومة، وقيل إنهم ينتسبون إلى الصفة، باعتبارهم
صفوة الله من خلقه.

وقيل أيضاً أنهم منسوبون إلى الصف الأول المقدم في
الصلاة، واعلم أن أرجح الأقوال هي نسبتهم إلى الصفاء وإلى
لبس الصوف.

يقول الإمام القشيري: «أن التصوف اسم علم على طائفة
الصوفية بغض النظر عن اشتقاق الكلمة والأصل الذي أُخذت
عنه»^(١).

(١) كتاب الرسالة القشيرية ص ١٨٣.

حقيقة علم التصوف

يتبين لنا من خلال ما مضى أن حقيقة علم التصوف هي: العمل بالشرعية الإسلامية على وجه الإخلاص والصدق، مع الكمال والتمام في كل الأعمال الظاهرة والباطنة، القلبية والنفسية والجسدية، ومراقبة الله في الأقوال والأفعال والأحوال، هذه هو التصوف في حقيقته.

ولو نظرنا في سير وتراجم رجال وأئمة علم التصوف الأوائل الذين أسسوه وبنوا قواعده، لوجدناهم علماء عاملين، دعاة إلى الله مخلصين، ساروا إلى الله تعالى متمسكين بالكتاب الكريم والسنة المطهرة، فلذلك ظهرت أسرارهم وأشرقت أنوارهم وبقيت آثارهم، وانتفع بهم الناس إلى يومنا هذا.

فالتصوف حقيقة هو: أن تتعلم العلم الشرعي الذي هو فرض عين على كل مسلم ومسلمة، عملاً بقوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الشريف: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»^(١)، ثم تعمل بهذا العلم الذي تعلمته، ثم تسعى لاكتساب الصدق والإخلاص.

(١) رواه ابن ماجه.

وذلك يكون بالاستعانة بالله تعالى، والعكوف على الذكر
والعبادة لتصفية الروح وتزكية النفس وشفاء القلب السقيم.

ويجب أن نعلم أنه لا تصوف بدون علم، ولا نفع للعلم بلا
عمل، ولا نفع للعمل بلا إخلاص، ومن قال بغير هذا فهو ليس
من التصوف في شيء.

ولكي يتضح معنى التصوف وتتجلي حقيقته، ويعرف عظم
قدره وجلالة شأنه، لابد من الاستئناس بذكر أقوال الأئمة
والعارفين والعلماء والصالحين؛ التي تبين لنا حقيقة التصوف
الجليلة العظيمة، فمن أقوالهم تتوضح لنا الحقائق، ونعرف الدقائق،
ونتحقق بالرقائق، وسنذكر أقوال الأئمة والعلماء وشهاداتهم
للتصوف فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

أقوال العلماء في التصوف

الإمام أبو حنيفة النعمان كان من أهل التصوف والطريقة:

يقول ابن عابدين في حاشيته: «وقد قال الأستاذ أبو القاسم القشيري في رسالته مع صلابته في مذهبه وتقدمه في هذه الطريقة: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: أنا أخذت هذه الطريقة من أبي القاسم النصر باذي. وقال أبو القاسم: أنا أخذتها من الشبلي، وهو أخذها من السري السقطي، وهو من معروف الكرخي، وهو من داود الطائي، وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة»^(١).

يقول الإمام مالك رضي الله عنه: «من تفقه ولم يتصوف

فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق»^(٢).

ويقول الإمام الشافعي رضي الله عنه: «حب إلى من

ديناكم ثلاث: ترك التكلف وعشرة الخلق بالتلطف والاعتداء بطريق أهل التصوف»^(٣). **ويقول أيضاً:** «صحت الصوفية

(١) حاشية ابن عابدين = رد المحتار ط الحلبي (٦٠/١).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للملا علي القاري، (٣٣٥/١).

(٣) كتاب كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني ص ٣٤١.

فاستفدت منهم ثلاث كلمات: قولهم: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، وقولهم: نفسك عن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر، وقولهم: العدم عصمة»^(١).

ويقول الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه لولده: بعد أن صحب أبا حزة البغدادي الصوفية: «يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والحشية والزهد وعلو الهمة»^(٢).

ويقول أيضاً: «لا أعلم أقواماً أفضل منهم، قيل إنهم يستحيون ويتواجدون، قال دعوهم يفرحوا مع الله ساعة»^(٣).

ويقول الإمام الغزالي: «ولقد علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق»^(٤).

ويقول الإمام النووي: «أصول طريق التصوف خمسة: تقوى الله في السر والعلانية، إتباع السنة في الأقوال والأفعال،

(١) كتاب تأييد الحقيقة العلية للإمام جلال الدين السيوطي ص ١٥.

(٢) كتاب تنوير القلوب للعلامة الشيخ أمين الكردي ص ٤٥.

(٣) كتاب غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب للسفاري ج ١ ص ١٢٠.

(٤) كتاب المنقذ من الضلال صفحة ٤٩.

الأعراض عن الخلق في الإقبال والأدبار، الرضا عن الله تعالى في القليل والكثير، الرجوع إلى الله في السراء والضراء»^(١).

ويقول الإمام العز بن عبد السلام: «قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تتهدم دنيا وأخرى وقعد غيرهم على الرسوم، ومما يدجل على ذلك ما يقع على يد القوم من الكرامات وخوارق العادات، فإنه فرع عن قربات الحق لهم، ورضاه عنهم، ولو كان العلم من غير عمل يرضي الحق تعالى كل الرضى لأجرى الكرامات على أيدي أصحابهم، ولو يعملوا بعلمهم، هيئات هيئات»^(٢).

ويقول الإمام تاج الدين السبكي تحت عنوان الصوفية:

«حياهم الله وبياهم وجمعنا في الجنة نحن وإياهم وقد تشبعت الأقوال فيهم تشعباً ناشئاً عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المتلبسين بها، بحيث قال الشيخ أبو محمد الجويني: لا يصح الوقف عليهم لأنه لا حد لهم. والصحيح صحته، وأنهم المعرضون عن الدنيا المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة. ثم تحدث عن تعاريف التصوف إلى أن قال: والحاصل أنهم أهل الله وخاصته الذين

(١) كتاب مقاصد الإمام النووي والتوحيد والعبادات وأصول التصوف ص ٢٠.

(٢) كتاب نور التحقيق للشيخ حامد صغر ص ٩٦.

ترتجي الرحمة بذكرهم ويستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنا بهم»^(١).

ويقول الإمام فخر الدين الرازي: «اعلم أن أكثر من حصر فرق الأمة لم يذكر الصوفية، وذلك خطأ لأن حاصل قول الصوفية أن الطريق إلى معرفة الله تعالى، هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية، وهذا طريق حسن، وقال أيضاً: والمتصوفة قوم يشتغلون بالفكر وتجرد النفس عن العلائق الجسمانية، ويجتهدون ألا يخلو سرهم وباهم عن ذكر الله تعالى في سائر تصرفاتهم وأعمالهم، منطبعون على كمال الأدب مع الله عز وجل، وهؤلاء هم خير فرق الأدميين»^(٢).

وقال الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى: «إن كثيراً من الجهال يعتقدون في الصوفية أنهم متساهلون في الإتياع والتزام ما لم يأت في الشرع التزامه مما يقولون به ويعملون وحاشاهم (الصوفية) من ذلك أن يعتقدوه أو يقولوا به فأول شيء بنوا عليه طريقهم إتياع السنة واجتناب ما خالفها»^(٣).

(١) كتاب معيد النعم ومبيد النقم ص ١١٩.

(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين الباب الثامن في أحوال الصوفية ص ٧٢.

(٣) كتاب الاعتصام للشاطبي.

ويقول الإمام تاج الدين السبكي: «حياهم الله وبياهم وجمعنا في الجنة نحن وإياهم وقد تشبعت الأقوال فيهم تشعباً ناشئاً عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المتلبسين بها، بحيث قال الشيخ أبو محمد الجويني: لا يصح الوقف عليهم لأنه لا حد لهم. والصحيح صحته، وأنهم المعرضون عن الدنيا المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة. ثم تحدث عن تعاريف التصوف إلى أن قال: والحاصل أنهم أهل الله وخاصته الذين تترجي الرحمة بذكرهم ويستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنا بهم»^(١).

ويقول الإمام جلال الدين السيوطي: «إن التصوف في نفسه علم شريف وإن مداره على أتباع السنة وترك البدع وعلمت أيضاً أنه قد كثر الدخيل فيه من قوم تشبهوا بأهله وليسوا منهم فأدخلوا فيه ما ليس منه فأدى ذلك إلى إساءة الظن بالجميع»^(٢).

ويقول ابن خلدون في مقدمته: «وهذا العلم - يعني التصوف - من العلوم الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة،

(١) كتاب معيد النعم ومبيد النقم ص ١١٩.

(٢) كتاب تأييد الحقيقة العلية للسيوطي ص ٥٧.

والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها،
والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد
عن الخلق، والخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف،
فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس
إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية^(١).

وفي هذا القدر مما نقلناه من أقوال وشهادات العلماء
للسوفية والتصوف، فقد بينت ووضحت بشكل واضح حقيقة
التصوف، وأن التصوف هو علم شريف ومستمد من الشرع،
وقائم على الشرع، ولا يخرج عن الشرع، فكيف يأتي من يقول:
إن التصوف علم مبتدع، وليس له أصل في الشريعة، وهو زنادقة
ورجاله زنادقة؟ فهذا الكلام لا يخرج إلا من جاهل أحمق.

وحتى لا يأتي أحد ويسرد لنا أقوال بعض المتصوفة التي
تخالف الشرع ويحتج علينا بها، فسنذكر أقوال رجال التصوف
المعتمدين الكبار رحمهم الله تعالى، لنبين حقيقة التصوف بشكل
واضح وجلي عند رجاله وأهله، وإليك أقوال العارفين أئمة
التصوف بل ومؤسسي علم التصوف:

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٢٩.

أقوال العارفين في التصوف

يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه: «كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة هي زندقة، طر إلى الحق عزَّ وجلَّ بجناحي الكتاب والسنة ادخل عليه ويدك في يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ترك العبادات المفروضة زندقة وارتكاب المحظورات معصية»^(١).

ويقول أيضاً: «التصوف ليس أخذ عن القيل والقال ولكن أخذ عن الجوع وقطع المألوفات والمستحسنتات»^(٢).

ويقول السري السقطي رضي الله عنه: «التصوف اسم لثلاثة معاني، هو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله»^(٣).

ويقول الجنيد البغدادي رضي الله عنه: «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر رسول الله صلى الله عليه

(١) الفتح الرباني ص ١٧٩.

(٢) فتوح الغيب المقالة الخامسة والسبعين.

(٣) الرسالة القشيرية، والسخاوي في طبقات الأولياء.

وآله وسلم واتبع سنته ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه»^(١).

ويقول أيضاً رضي الله عنه: «من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة»^(٢).

ويقول الشيخ أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى: «قد درج أشياخ الطريق كلهم على أن أحداً منهم لا يتصدر في الطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة»^(٣).

ويقول في مقدمة رسالته متحدثاً عن الصوفية: «جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضّلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم، وجعل قلوبهم معادن أسراره واختصّهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق. صفاهم من كدورات البشرية، ورفّاهم إلى محل المشاهدات بما تجلّى لهم من حقائق الأحادية، ووفّقهم للقيام بآداب العبودية، وأشهدهم

(١) ابو نعيم في الحلية (ج ١٠ ص ٢٥٥)، وطبقات الصوفية ص ١٥٩.

(٢) ذكره القشيري في رسالته ص ١٩، وذكره ابو نعيم في الحلية (ج ١٠ ص ٢٥٥).

(٣) كتاب الرسالة القشيرية: ص ٢.

مجاري أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما مَنَّ سبحانه لهم من التقليل والتصريف، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار، ولم يَتَّكِلُوا على ما حصل منهم من الأعمال أو صفا لهم من الأحوال، علماً منهم بأنه جَلَّ وعلاً يفعل ما يريد ويختار من يشاء من العبيد، لا يحكم عليه خلق، ولا يتوجه عليه لمخلوق حق ثوابه ابتداءً فضل، وعذابه حكم بعدل، وأمره قضاء فصل^(١).

ويقول الإمام الغزالي رضي الله عنه: «إِنَّ سالك سبيل الله قليل، والمدعي فيه كثير، ونحن نعرفك علامتين له.

الأولى: أن تكون جميع أفعاله موزونة بميزان الشرع، موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً وإقداماً وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها.

والثانية: لا يصل فيه إلا من واظب على جملة من النوافل، فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض»^(٢).

(١) مقدمة الرسالة القشيرية: ص ١.

(٢) ميزان العمل للغزالي: باب من منازل السائرين إلى الله.

ويقول الشيخ أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر باذي:

«أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الهواء والبدع، وتعظيم حرمان المشايخ ورؤية أعداء الخلق، وحسن صحبة الرفقاء، والقيام بخدمتهم، واستعمال الأخلاق الجميلة، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات، وما ضل أحدٌ بهذا الطريق إلا بفساد الابتداء يؤثر في الانتهاء»^(١).

ويقول الشيخ أبو بكر الكتاني رضي الله عنه: «التصوف

خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف»^(٢).

ويقول الإمام أحمد الرفاعي الكبير: «الطريقة هي الشريعة

والشريعة هي الطريقة والفرق بينهما لفظي والمادة والمعنى والنتيجة واحدة»^(٣).

ويقول أبو يزيد البسطامي: «لو نظرتم إلى رجل أعطى من

الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة»^(٤).

(١) طبقات الصوفية ص ١٥٩.

(٢) طبقات الصوفية ص ١٤٥.

(٣) البرهان المؤيد ص ٦٣.

(٤) الاعتصام للشاطبي ص ١٢٧.

ويقول الإمام أبو الحسن الشاذلي: «إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقل لنفسك إنّ الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة»^(١).

ويقول الشيخ محي الدين بن عربي قدس سره: «التصوف هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطناً، وهي مكارم الأخلاق، وهو أن تعامل كل شيء بما يليق به مما تحمده بك»^(٢).

ويقول ابن عطاء الله السكندري: «من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب صلى الله عليه وسلم في أوامره وأفعاله وأخلاقه»^(٣).

ويقول سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى: «أصول طريقتنا سبعة: التمسك بالكتاب، والاعتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، لزوم التوبة، وأداء الحقوق»^(٤).

(١) طبقات الشاذلية ص ٢٠.

(٢) كتاب البدور الجليلة للشيخ نور الدين البريفكاني تحقيق وحيد البريفكاني ص ١٦.

(٣) مدارج السالكين لابن القيم ج ٢/ص ٤٨٦.

(٤) الاعتصام للشاطبي: ص ١٢٧.

ويقول الإمام المحاسبي رحمه الله تعالى: «فأصبحت راغباً في مذهبهم مقتبساً من فوائدهم قابلاً لآدابهم، محباً لطاعتهم، لا اعدل بهم شيئاً، ولا أؤثر عليهم أحداً، ففتح الله لي علماً اتضح لي برهانه، وأنار لي فضله، ورجوت النجاة لمن اقرّ به أو انتحله.

ثم يقول: وأيقنت بالغوث لمن عمل به، ورأيت الاعوجاج فيمن خلفه، ورأيت الرّين متراكماً على قلب من جهله وجحده ورأيت الحجة العظمى لمن فهمه، ورأيت انتحاله والعمل بمحدوده واجباً علي فاعتقدته في سريرتي، وانطويت عليه بضميري، وجعلته أساس ديني وبنيت عليه أعمالي وتقلّبت فيه بأحوالي وسألت الله عز وجلّ أن يوزعني شكر ما أنعم به علي وان يقويني على القيام بمحدود ما عرّفني به، مع معرفتي بتقصيري في ذلك، وأني لا أدرك شكره أبداً»^(١).

ويقول الشيخ أبو حفص الحداد رحمه الله تعالى: «من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا يعد في ديوان الرجال»^(٢).

(١) كتاب الوصايا ص ٢٧_٣٢ للأمام الحارث المحاسبي المتوفى ٢٤٣هـ.

(٢) الاعتصام للشاطبي: ص ١٢٧.

ويقول أبو الحسن الندوي: «إن هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد والإخلاص واتباع السنة، والتوبة عن المعاصي وطاعة الله ورسوله، ويحذرون من الفحشاء والمنكر والأخلاق السيئة والظلم والقسوة، ويرغبونهم في التحلي بالأخلاق الحسنة، والتخلي عن الرذائل مثل الكبر والحسد والبغضاء والظلم وحب الجاه، وتزكية النفس وإصلاحها، ويعلمونهم ذكر الله والنصح لعباده والقناعة والإيثار، وعلاوة على هذه البيعة التي كانت رمز الصلة العميقة الخاصة بين الشيخ ومريديه إنهم كانوا يعضون الناس دائماً، ويحاولون أن يلهبوا فيهم عاطفة الحب لله سبحانه، والحنين إلى رضاه، ورغبة شديدة لإصلاح النفس وتغيير الحال»^(١).

وفي هذا القدر من أقوال الأئمة والعارفين كفاية لمن أراد أن يعرف حقيقة التصوف والصوفية، فإن كان هذا هو التصوف فأبي علم أشرف وأجل وأعظم وأكرم من هذا العلم.

(١) المسلمون في الهند: ص ١٤٠ .

خصال علم التصوف

يقول إمام الطريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني في وصيته:

وتعلم يا ولدي وفقنا الله تعالى وإياك والمسلمين: أن
التصوف مبني على ثمان خصال: أولها: السخاء. والثاني: الرضاء.
والثالث: الصبر. والرابع: الإشارة. والخامس: الغربة. والسادس:
لبس الصوف. والسابع: السياحة. والثامن: الفقر.

- (١) فالسخاء لنبي الله إبراهيم عليه السلام.
- (٢) والرضا لنبي الله إسحق عليه السلام.
- (٣) والصبر لنبي الله أيوب عليه السلام.
- (٤) والإشارة لنبي الله زكريا عليه السلام.
- (٥) والغربة لنبي الله يوسف عليه السلام.
- (٦) ولبس الصوف لنبي الله يحيى عليه السلام.
- (٧) والسياحة لنبي الله عيسى عليه السلام.
- (٨) والفقر لنبي الله ورسوله حبيبنا وسيدنا وشفيعنا عريض
الجاه محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم ومجد
وعظم^(١).

(١) من وصية الشيخ عبد القادر الجيلاني لولده.

أصول منهج التصوف

يقول الإمام النووي: «أصول طريق التصوف خمسة: التقوى لله في السر والعلانية، وإتباع السنة في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والأدبار، والرضا عن الله تعالى في القليل والكثير، والرجوع إلى الله في السراء والضراء»^(١).

ويقول الإمام سهل بن عبد الله التستري: «أصول طريقتنا سبعة: التمسك بالكتاب، والاعتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، لزوم التوبة، وأداء الحقوق»^(٢).

ويقول الشيخ أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر باذي: «أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الهواء والبدع، وتعظيم حرمان المشايخ ورؤية أعذار الخلق، وحسن صحبة الرفقاء، والقيام بخدمتهم، واستعمال الأخلاق الجميلة، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات، وما ضل أحدٌ بهذا الطريق إلا بفساد الابتداء يؤثر في الانتهاء»^(٣).

(١) كتاب مقاصد الإمام النووي والتوحيد والعبادات وأصول التصوف ص ٢٠.

(٢) الاعتصام للشاطبي: ص ١٢٧.

(٣) طبقات الصوفية ص ١٥٩.

أركان منهج التصوف

يقول الإمام أبو بكر محمد الكلاباذي: «سمعت أبا الحسن محمد بن أحمد الفارسي يقول: أركان التصوف عشرة:

أولها: تجريد التوحيد، ثم فهم السماع، وحسن العشرة، وإيثار الإيثار، وترك الاختيار، وسرعة الوجد، والكشف عن الخواطر، وكثرة الأسفار، وترك الاكتساب، وتحريم الادخار.

معنى تجريد التوحيد أن لا يشوبه خاطر تشبيه أو تعطيل، وفهم السماع أن يسمع بحاله لا بالعلم فقط وإيثار الإيثار أن يؤثر على نفسه غيره بالإيثار ليكون فضل الإيثار لغيره وسرعة الوجد ان لا يكون فارغ السر مما يثير الوجد ولا ممتلئ السر مما يمنع من سماع زواجر الحق والكشف عن الخواطر أن يبحث عن كل ما يخطر على سره فيتابع ما للحق ويدع ما ليس له وكثرة الأسفار لشهود الاعتبار في الآفاق والأقطار، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾^(١)، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾^(٢). قيل في قوله عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي

(١) سورة الروم: [الآية: ٩].

(٢) سورة العنكبوت: [الآية: ٢٠].

الأرض ﴿﴾ ، قَالَ بَضِيَاءُ الْمَعْرِفَةِ لَا بِظُلْمَةِ النُّكْرَةِ وَلِقَطْعِ الْأَسْبَابِ
ورِيَاضَةِ التُّفُوسِ وَتَرْكِ الْاِكْتِسَابِ: لِمَطَالِبَةِ النُّفُوسِ بِالتَّوَكُّلِ.

وتحريم الادخار: في حالة لا في واجب العلم، كما قال النبي
صلى الله عليه وآله وسلم في الذي مات من أهل الصفة وترك
ديناراً فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كيتان^(١).

ويقول أبو طالب المكي في قوت القلوب: «أربع هن أساس
بنيانه وبها قوة أركانه؛ أولها الجوع، ثم السهر، ثم الصمت، ثم
الخلوة، فهذه الأربع سجن النفس وضيقها وضرب النفس
وتقييدها بهن يضعف صفاتها وعليهن تحسن معاملاتها ولكل
واحدة من الأربع صنعة حسنة في القلب»^(٢).

ويقول الإمام الغزالي في الإحياء: «عن سهل بن عبد الله
التستري أنه قال: ما صار الإبدال إلا بإخماس البطون، والسهر،
والصمت، والخلوة»^(٣).

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف (ص ٩٠)، قلت: وحسن العشرة: أن يخالق الناس
بخلق حسن وأن يتبع السيئة الحسنة، وخاصة أهل بيته وأرحامه، وجيرانه، وترك
الاختيار: أن يتوكل على الله ويفوض أموره كلها إليه ظاهراً وباطناً.

(٢) قوت القلوب ج ١ ص ١٣٢.

(٣) شرح الحكم العطائية للشرنوبلي ص ٢٦.

ويقول الإمام السهروردي: «قد اتفق المشايخ على أن بناء أمرهم على أربعة أشياء: قلة الطعام، وقلة المنام، وقلة الكلام، والاعتزال على الناس»^(١).

ويقول الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي: «أركان الطريق أربعة الصمت والجوع والعزلة والسهر، وينشأ عن هذه الأربعة معرفة الله والنفس والدنيا والشيطان، فإذا اعتزل الإنسان عن الخلق وعن نفسه وصمت عن ذكره بذكره وأعرض عن الغذاء الجسماني وسهر عند نوم النائمين واجتمعت فيه هذه الخصال الأربعة تبدلت بشريته ملكية وعبودية سيادة وعقله حساً وغيبته شهادة وباطنه ظاهراً»^(٢).

ويقول في كتاب حلية الأبدال: «أخبرني صاحب لنا قال: بينا أنا ليلة في مصلاي قد أكملت وردي وجعلت رأسي بين ركبتي أذكر الله تعالى إذ حسست بشخص قد نفذ مصلاي من تحتي وبسط عوضاً عنه حصيراً وقال: صلي عليه وباب بيتي عليّ مغلق فداخلي منه فزع فقال لي: من يأنس بالله لم يجزع ثم قال: اتق الله في كل حال ثم إني ألهمت الصوت فقلت: يا سيدي

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ج ٣ ص ٧٩

(٢) فيض القدير (٢/٤٢٩).

بماذا تصير الأبدال أبدالاً فقال: بالأربعة التي ذكرها أبو طالب في القوت: الصمت والعزلة والجوع والسهر ثم انصرف ولا أعرف كيف دخل ولا كيف خرج وبإبي مغلق»^(١).

ويقول الشعراي في الأنوار القدسية: أركان التصوف أربعة:

الجوع، السهر، العزلة، الصمت، وقد جمعها بعضهم في قوله:
بيت الولاية قسمت أركانه ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتزال دائم والجوع والسهر الزيه الغالي
ويقول في العهد: «فمن أخلَّ بواحدة من هذه الأربعة لا يتم له حالة في الطريق».

ويقول أحمد بن سهل رحمه الله تعالى: «أعداؤك أربعة:

الدنيا: سلاحها الخلق، وسجنها العزلة. والشيطان: وسلاحه الشبع، وسجنه الجوع. والنفس: وسلاحها النوم، وسجنها السهر، والهوى: وسلاحه الكلام، وسجنه الصمت»^(٢).

ويقول الشيخ أحمد بن عجيبة الحسيني: «وقد قالوا: أركان

التصوف ثلاثة: الاجتماع، والاستماع، والاتباع»^(٣).

(١) فيض القدير (٣/ ١٦٨).

(٢) شرح الحكم العطائية للشرنوبلي ص ٢٦.

(٣) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٢/ ٦١٥).

استمداد التصوف وميزانه

وأما استمداد قواعده وأساسه وخصاله ومبادئه فمن الكتاب الكريم والسنة الشريفة، وأحوال الصالحين، وفتوحات العارفين، واجتهادات العلماء العاملين، بما يوافق الكتاب والسنة والآثار الثابتة والوصايا، فهو لا يخرج عن هذا، بغض النظر عن كل ما أُدخل فيه من البدع فهو بريء منها براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام.

ولقد بينا فيما مضى كل ما يتعلق بالتصوف، تعريفه وأركانه ونسبته ومنشأه ومكانته بين العلوم وحقيقته وأصوله ومكانته وحكمه، ولا بد أن تكون قد تكونت عند القارئ فكرة كاملة وشاملة عن هذا العلم الجليل.

وقد تبين لنا أنه علم شرعي شريف جليل، ذو قدر ومكانة في الدين، وأنه قائم على الكتاب والسنة وقد شهد له بهذا كبار علماء الأمة، وبهذا نكون قد عرفنا أن للتصوف ميزاناً نستطيع من خلاله معرفة الحق من الباطل، والصحيح من الخاطئ.

ونستطيع من خلال هذا الميزان التمييز بين الأدعياء والصادقين، وهذا الميزان هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله

عليه وآله وسلم، وأحوال السلف الصالح من الصحابة وأئمة آل البيت والعلماء والعارفين الذين كان لهم الدور البارز بتأسيس وتقعيد هذا العلم.

وانطلاقاً من هذا الميزان القويم نستطيع التمييز بين الحق والباطل، واعلم أن كل ما خالف الأصول التي بينهاها، ليس من التصوف من شيء والتصوف منه براء، وقد وضح هذا الكثير من أئمة التصوف.

وفي الأقوال السابقة للعلماء والعارفين كفاية، وسنعيد ذكر بعضها هنا لتكون حجة على كل متصوف، بعيد عن منهج الحق ومنهج الكتاب والسنة، ولتكون لنا ميزاناً وعلى الأدعياء حجة فاسم إلى قول العارفين:

يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه: «كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة هي زندقة، طر إلى الحق عزَّ وجلَّ بمناحي الكتاب والسنة ادخل عليه ويدك في يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ترك العبادات المفروضة زندقة وارتكاب المحظورات معصية»^(١).

(١) الفتح الرباني ص ١٧٩.

ويقول الإمام الغزالي: «إنَّ سالك سبيل الله قليل، والمدعي فيه كثير، ونحن نعرفك علامتين له. الأولى: أن تكون جميع أفعاله موزونة بميزان الشرع، موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً وإقداماً وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها. والثانية: لا يصل فيه إلا من واطب على جملة من النوافل، فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض»^(١).

ويقول أبو يزيد البسطامي: «لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجردونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة»^(٢).

ويقول الشيخ أبو القاسم إبراهيم النصر باذي: «أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الهواء والبدع، وتعظيم حرمان المشايخ ورؤية أعداء الخلق، وحسن صحبة الرفقاء، والقيام بخدمتهم، واستعمال الأخلاق الجميلة، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات، وما ضل أحدٌ بهذا الطريق إلا بفساد الابتداء يؤثر في الانتهاء»^(٣).

(١) ميزان العمل للغزالي: باب من منازل السائرين إلى الله.

(٢) الاعتصام للشاطبي ص ١٢٧.

(٣) طبقات الصوفية ص ١٥٩.

ويقول الشيخ السري السقطي: «التصوف اسم لثلاثة معاني، هو الذي لا يطفى نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله»^(١).

ويقول الجنيد البغدادي: «من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة»^(٢). **ويقول:** «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واتبع سنته ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه»^(٣).

ويقول الإمام سهل بن عبد الله التستري: «أصول طريقتنا سبعة: التمسك بالكتاب، والاقتراء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، لزوم التوبة، وأداء الحقوق»^(٤).

ويقول الأمام النووي: «أصول طريق التصوف خمسة: تقوى الله في السر والعلانية، إتباع السنة في الأقوال والأفعال،

(١) الرسالة القشيرية، والسخاوي في طبقات الأولياء.

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٩، وذكره ابو نعيم في الحلية (ج ١٠ ص ٢٥٥)،

(٣) ابو نعيم في الحلية (ج ١٠ ص ٢٥٥)، وطبقات الصوفية ص ١٥٩.

(٤) الاعتصام للشاطبي: ص ١٢٧.

الأعراض عن الخلق في الإقبال والأدبار، الرضا عن الله تعالى في القليل والكثير، الرجوع إلى الله في السراء والضراء»^(١).

ويقول أبو حفص الحداد: «من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا يعد في ديوان الرجال»^(٢).

ويقول أبو الحسن الشاذلي: «إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقل لنفسك إنَّ الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة»^(٣).

ويقول الإمام الطوسي: «من لم يُحْكَم أساسه على ثلاثة أشياء فهو مخدوع ولو مشى في الهواء ونطق بالحكمة أو وقع له قبول عند الخاصّة أو العامة وهذه الثلاثة أشياء أوّلها اجتناب جميع المحارم كبيرها وصغيرها والثاني أداء جميع الفرائض

(١) كتاب مقاصد الإمام النووي: ص ٢٠.

(٢) الاعتصام للشاطبي: ص ١٢٧.

(٣) طبقات الشاذلية ص ٢٠.

عسيرها ويسيرها والثالث ترك الدنيا على أهل الدنيا قليلها وكثيرها إلا ما لا بد للمؤمن منها»^(١).

وفي أقوال العلماء والعارفين التي مر ذكرها ما يكفي لبيان ميزان التصوف والحاصل أن الميزان في هذا العلم الجليل هو الكتاب والسنة وأحوال العارفين وأقوالهم، فما وافق الكتاب والسنة ومنهج القوم العارفين فهو طريقنا ومنهجنا، وما خالفها فنحن منة براء.

ويجب أن نعلم أن غاية التصوف هي اقتفاء آثار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والسلف الصالح والعارفين بالله، للوصول إلى تزكية النفس وسلامة القلب وطهارة الروح كما أراد الله سبحانه وتعالى، ولن تتحقق هذه الغاية إلا بالاتباع الصادق لهم ظاهراً وباطناً، في الأقوال والأفعال والأحوال.

(١) اللمع ص ٤٠٩.

أدعياء التصوف

لقد تبين من خلال ما مضى من بحثنا أنّ التصوف علم جليل القدر وعظيم الشأن، ولكن حاله كحال بقية العلوم، فقد ابتلي في الآونة الأخيرة بثلة من المتصوفة الذين دخلوا فيه وهم ليسوا منه، كما ابتلي الإسلام بالمنافقين في أول ظهوره، الذين أبطنوا الكفر وظهروا الإيمان، وكما قيل لكل قاعدة شواذ، فما كان من أعداء التصوف إلا أن يستغلوا وجود هؤلاء الدخلاء على التصوف ليطنعوا به ويشوهوه ويميتوا ريحه بين الناس، وهم على يقين أن التصوف منهم براء، وهذا ظلم وافتراء عظيم .

وما مثل التصوف في هذا إلا كمثل باقي العلوم الأخرى، فقد دخل في علم الحديث من ليس من أهله ففسد الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك علم الكلام والعقيدة والسير والتاريخ والفقه وغيرها من العلوم، فكذلك التصوف ابتلي بالأدعياء كما ابتلي غيره، ولكن لكل علم ميزان وميزان التصوف أصبح واضحاً وحقيقته مشرقة كما بينا.

يقول الأمام السيوطي: «إن التصوف في نفسه علم شريف، وإن مداره على اتباع السنة وترك البدع، وعلمت أيضاً أنه قد

كثير الدخيل فيه من قوم تشبهوا بأهله وليسوا منهم، فأدخلوا فيه ما ليس منه فأدى ذلك إلى إساءة الظن بالجميع»^(١).

ولو تمعنا في قول الإمام السيوطي لتجلت لنا الحقيقة، وهذا الذي حدث، فقد دخل في التصوف أناس أخذوا بالقشور وتركوا اللب والأصول، وسموا أنفسهم بالصوفية، بل والبعض منهم تصدر للمشيخة واتبعه المريدون، فهلك وأهلكهم، وتحمل التصوف سوء أفعالهم، ويتحقق فيهم قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ حُشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾^(٢).

ولو دخلت إلى قلوبهم وبواطنهم لما وجدت ذرة من إيمان، تصدروا للمشيخة دون أن يتعبوا ويجاهدوا أنفسهم، فصاروا أشكالاً وأجساداً بدون قلوب، السنة بلا أخلاق، إنما أصلحوا ظواهرهم ودنسوا بواطنهم.

ويقول الشيخ عبد القادر الجيلاني: «الناس أربعة رجال: وذكر منهم رجل له لسان بلا قلب! فينطق بالحكمة ولا يعمل يدعو الناس إلى الله وهو يفر منه عز وجل، يستقبح عيب غيره

(١) كتاب تأييد الحقيقة العلية للسيوطي ص ٥٧.

(٢) سورة المنافقون: [الآية: ٤]

ويدوم على مثله في نفسه، يظهر للناس تنسكاً وبيارز الله عز وجل في العظام من المعاصي إذا خلا، كأنه ذئب عليّة ثياب، وهذا هو الذي حذر منه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان»^(١)، فابتعد عن هذا وهرول لثلا يختطفك بلذيد لسانه فتحرقك نار معاصيه ويقتلك نتن باطنه وقلبه»^(٢).

وهذه الصورة التي مثلها لنا الشيخ عبد لقادر الجيلاني قدس الله سره تعطينا صورة كاملة عن أدعياء التصوف، وما أكثرهم اليوم عافانا الله وإياكم.

فلما كثر هؤلاء الأدعياء، وأعمالهم كلها مخالفة للكتاب والسنة، بل مخالفة لأصول التصوف الصحيح، وبدأ الناس يستشعرون خطرهم ويحذروا منهم، فلما أحسوا بالخطر ما كان منهم إلا أن بدءوا بالدس والتحريف في كتب الصوفية وراحوا يغيرون القواعد والمناهج التي أسسها رجال التصوف، وفق ما يناسب أهوائهم ومخالفاتهم ومصالحهم، فأدخلوا في التصوف ما ليس منه وكل ذلك باسم الصوفية، حتى اوجدوا بعد حقبة من

(١) رواه أحمد عن عمر وهو حديث صحيح.

(٢) فتوح الغيب المقالة الثالثة والثلاثون.

الزمن تصوفاً جديداً لا يمت للتصوف الصحيح بصلة، وقد ذكرنا في مبحث ميزان التصوف من أقوال العارفين ما فيه كفاية للتمييز بين الأدعياء والصادقين، وسنكرر بعضها هنا للتأكيد:

يقول الشيخ أبو يزيد البسطامي: «لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة»^(١).

ويقول الإمام الغزالي: «إنَّ سالك سبيل الله قليل، والمدعي فيه كثير، ونحن نعرفك علامتين له. الأولى: أن تكون جميع أفعاله موزونة بميزان الشرع، موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً وإقداماً وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها. والثانية: لا يصل فيه إلا من واطب على جملة من النوافل، فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض»^(٢).

ويقول الشيخ عبد القادر الجيلاني: «كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة هي زندقة، طر إلى الحق عزَّ وجلَّ بجناحي الكتاب والسنة ادخل عليه ويدك في يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»^(٣).

(١) الاعتصام للشاطبي ص ١٢٧.

(٢) ميزان العمل للغزالي: باب من منازل السائرين إلى الله.

(٣) الفتح الرباني ص ١٧٩.

ومن الأمثلة على مخالفاتهم: تغيير حلق الذكر وجعلها طقوس بعيدة عن الكتاب والسنة، وجمع الرجال والنساء فيها، والشطح فيما يخالف الشرع، وأدخلوا عقيدة الاتحاد والحوّل، وترك العلم الشرعي، وترك السنن والآداب الشرعية، وغيرها من المخالفات، والدس في كتب العلماء والعارفين.

يقول الإمام الشعراي رحمه الله تعالى: «ومما منّ الله تبارك وتعالى به علي صبري على الحسدة والأعداء لما دسوا في كتيبي كلاماً يخالف ظاهر الشريعة، وذلك لما صنفت كتاب البحر المورود في المواثيق والعهود وكتب عليها علماء المذاهب الأربعة بمصر، وتسارع الناس لكتابته فكتبوا منة نحو أربعين نسخة غار من ذلك الحسدة فاحتالوا على بعض المغفلين من أصحابي واستعاروا منة نسخته وكتبوا لهم منها بعض كراريس، ودسوا فيها عقائد زائفة ومسائل خارقة لإجماع المسلمين وحكايات وسخريات عن جحا وابن الرواندي وسبكوا في ذلك غضون الكتاب في مواضيع كثيرة، حتى كأنهم المؤلف، ثم أخذوا تلك الكراريس وأرسلوها إلى سوق الكتب في يوم السوق، وهو مجمع طلبة العلم فنظروا في تلك الكراريس ورأوا اسمي عليها فاشتراها من لا يخشى الله تعالى، ثم دار بها على علماء الجامع الأزهر فأوقع ذلك فتنة كبيرة،

ومكث النادي يدورون في المساجد والأسواق وبيوت الأمراء نحو سنة، وانتصر لي لشيخ نصر الدين القاني وشيخ الإسلام الحنبلي والشيخ شهاب الدين بن الحلبي، كل ذلك وأنا لا اشعر فأرسل لي شخص من المحبين بالجامع الأزهر واخبرني الخبر، فأرسلت نسختي التي عليها خطوط لعلماء فنظروا فيها لم يجدوا فيها شيئاً مما دس هؤلاء الحسدة»^(١).

وكذلك تم التحريف والدس في كتاب الغنية للشيخ عبد القادر الجيلاني رضوان الله تعالى عليه، فأدخلوا فيه عقيدة المجسمة، لينصروا مذهبهم من جهة، وليشوخوا سيرة الشيخ وعقيدته من جهة أخرى، أضف إلى ذلك ما ينسب إليه من قصص وحكايا لا تصح بحال من الأحوال.

وكذلك دس في كتب الشيخ محي الدين العربي رضي الله عنه وقد بين هذا الكثير من العلماء.

وقد ذكر العلامة ابن عابدين الفقيه الحنفي وصاحب أكبر موسوعة في الفقه الحنفي فقال: «أن الراجح عنده بالنسبة لما ورد في كتب الشيخ محي الدين بن عربي مما يخالف الشرع بأنه

(١) لطاف المنن ج ٢ ص ١٩٠.

مفتري عليه ولذلك تجد نص عبارة صاحب الدر المختار: ولكن الذي تيقنته أن بعض اليهود افترها علي الشيخ قدس الله سره»^(١).

بل إن ابن تيمية نفسه يعترف بالدس على السيدة رابعة العدوية حيث يقول: «وأما ما ذكر عن رابعة عن قولها عن البيت الحرام أنه الصنم المعبود في الأرض كذب على رابعة المؤمنة التقية»^(٢).

والحاصل من هذا كله أن نقول لكل الذين يجاربون التصوف أن ينصفوا ويعدلوا ويفرقوا بين أدعياء التصوف والسادة الصوفية، فقد قال الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾^(٣)، ويجب ألا يؤخذ الصالح بالطالح.

وفيما بيناه من بيان لحقيقة التصوف فيما سبق كفاية لمن أراد الهداية والوصول للحقيقة، فقد بينا له حقيقة التصوف، ووضعنا له الميزان الشرعي للتصوف، وهذا كافي للتفريق بين الصوفية وأدعياءهم.

(١) الدر المختار: ج ٣ ص ٣٠٣.

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية: ج ١ ص ٨٠.

(٣) سورة فاطر: [الآية: ١٨]

تعدد الطرق الصوفية

اعلم أخي السالك وفقني الله تعالى وإياك: أن تعدد الطرق الصوفية، ووجود الاختلاف في بعض الفروع والآداب والمناهج أمر طبيعي، ومقبول عند أكابر العلماء؛ لأن الاختلاف هو حكمة وسنة كونية.

وهناك الكثير من أعداء التصوف يتخذون من تعدد الطرق الصوفية واختلافها في بعض الأمور سبيلاً للطعن بها، مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(١).

ولو كلف هذا المنكر نفسه عناء الرجوع إلى تفسير هذه الآية الكريمة لوجد أن السُّبُلَ المنهي عنها في الآية الكريمة هي سبل الشيطان التي تؤدي للكفر والضلال.

أما الطرق الصوفية فهي ليست من هذه السبل، وقد بينا فيما سبق ذلك جلياً، وظهر لنا أنها من سبل الرحمن التي أمرنا الله تعالى باتباعها والالتزام بها وحثنا عليها ورغبنا فيها، فمن أراد الحق والهدى وجد سبيله إلى ذلك.

(١) سورة الأنعام: [الآية: ١٥٣]

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢).

ويتبين لنا من هذه الآيات أنّ هناك سبل الخير وهناك سبل الشر، هناك سبل الهداية وهناك سبل الغواية، وليست كل السبل مذمومة وتؤدي للضلال والكفر، عافانا الله تعالى وإياكم.

وبهذا يبطل استدلال المنكر بالآية المذكورة للطعن بتعدد الطرق، لا سيما وقد بينا فيما سبق تعريف حقيقة التصوف وحكمه وما يتعلق به.

والطريقة في حقيقتها هي العمل بالشرعية على وجه الإخلاص وبهذا يتقرر أن الطريقة بمعناها الصحيح بعيداً عما دس فيها من بدع وضلالات في العصور المتأخرة يتقرر لنا أنها سبيل من سبل الهداية.

(١) سورة العنكبوت: [الآية: ٦٩]

(٢) سورة المائدة: [الآية: ١٦]

والتعدد والاختلاف في الطرق الصوفية إنما هو في الفروع والآداب وأساليب التربية، وشأن التصوف بهذا كشأن سائر العلوم الإسلامية.

ومن المعلوم أن جميع العلماء اختلفوا في الفقه والأصول والحديث والكلام والتفسير، ولكنهم جميعهم متفقون على الأصول الجامعة لجميع أهل الإسلام، وإنما الاختلاف في الفروع، وهذا الاختلاف ليس فيه من حرج شرعي، بل هو رحمة بالناس وتيسير على المسلم في أمور دينه.

وعلم التصوف علم يعنى بالأخلاق وأحوال القلوب والنفوس، والناس تختلف من حيث أحوالهم ونفوسهم وأرواحهم وقلوبهم، فمنها ما هو طاهر ومنها ما هو خبيث، ويتفاوتون بهذا حسب البلاد والبيئة والنشأة والثقافة، فكان لا بد من الاختلاف في أساليب التربية والتأديب، فسعى كل إمام من أئمة المدارس السلوكية الصوفية لتأسيس منهجه على حسب رؤيته وذوقه العرفاني الذي تلقاه بدوره عن مشايخه الكرام قدست أسرارهم.

أضف إلى ذلك أن اختلاف التصوف هو تابع بكل الأحوال لبقية الاختلافات العلمية والمذهبية والعقائدية، وهذا

أمر طبيعي وكان واضحاً في منهج الصحابة الكرام رغم تربيتهم على يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومع ذلك اختلفوا في أمور كثيرة علمية وسلوكية وعقائدية.

ولم يكن في الاختلاف ضير في تاريخ هذه الأمة، لأنهم متفقون على الأصول العلمية والأصول العقائدية والأصول السلوكية، وكل شيء بعد هذا تابع للفهم الخاص بكل واحد منهم.

واعلم أن اختلاف الطرق الصوفية في حقيقته ناتج عن اختلاف الأئمة الذين أسسوا هذه الطرق والمناهج، فلو أخذنا بعض الأمثلة على ذلك من الأئمة تتضح لنا صورة الاختلاف وسببها.

فلو نظرنا بسيرة الإمام الغزالي والإمام الجيلاني والإمام الرفاعي والإمام البدوي والإمام الدسوقي والإمام الشاذلي والإمام الخلوتي والإمام النقشبندي والإمام السهروردي والإمام التيجاني وغيرهم من أئمة الطرق، لوجدنا اختلافاً بينهم من حيث المذهب الفقهي وربما العقائدي أحياناً، والبلد والمنشأ والمدرسة السلوكية التي تربى فيها، والحالة السياسية والاقتصادية لكل زمن وبلد

مرتبط بواحد منهم، فستخرج بنتيجة وهي استحالة أن يكون أسلوب التربية واحداً بينهم، ولا بد من اختلاف في المنهج.

وقد ظهر هذا جلياً في الاختلاف الذي ظهر بين الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، فقد اختلفت المناهج السلوكية نتيجة لاختلاف الظروف، فتجد مثلاً من تربى في مدرسة الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة يختلف عن الذي تربى في مدرسة غيرهم من المتأخرين من الصحابة، من حيث العلم والسلوك والتقوى والورع.

ولهذه الأسباب اختلفت الأساليب واختلفت الآداب من طريقة لأخرى ومن منهج لآخر، فأسس كل إمام من أئمة الطرق المنهج المناسب في التربية.

وهذا ما كان يفعله المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، يأتيه عدة رجال يطلبون الوصية، وكل مرة يوصي بوصية مختلفة وذلك حسب حال السائل، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صاحب بصيرة ليس لها نظير فكان يعطي العلاج المناسب لكل سائل، وكذلك حال الصالحين المرشدين الكمل الذين أنعم الله عليهم بالعلم والبصيرة وتحققوا بالوراثة المحمدية، فاختلفت

أساليب التربية من شيخ لآخر، ولكن بقي الجميع متفق على الأصول والأسس التي بنيت عليها الطرق الصوفية والمستمدة من الكتاب والسنة.

وقد يأتي منكر فيقول: انظر إلى أصحاب الطرق يسود بينهم الشقاق والاختلاف وذلك على مستوى المريدين وكذلك المشايخ، فنقول له: هذا ليس مقياساً وليس عبرة وليست ذريعة للظعن في الطرق ما دام الأصل صحيح، وشذوذ الفرع لا يعني فساد الأصل.

وارجع إلى تاريخ الأمة إن شئت فكم بدل المسلمون بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أمور، وكم قد اختلف الصحابة حتى نشبت بينهم الحروب.

وانظر إلى أحوال المسلمين اليوم من حيث الاختلاف والانقسام، فهل يحاسب الإسلام على تصرفات الأفراد والجماعات بل والأمم بأسرها إن انخرقت وشذت، طبعاً لا يحاسب، فالإسلام دين الكمال مهما بدل المسلمون.

وهذا هو حال التصوف والطرق الصوفية، فمهما رأيت من تبديل وتحريف في هذا الزمن فالأصل طيب طاهر، وهناك الكثير

من رجال ومناهج التصوف بقيت محافظة على الاستقامة على المنهج الصحيح الذي بنيت عليه، ولم يضرها من خالف وشذ عن المنهج، وحالها كحال بقية العلوم.

وكما ظهر الشطط والانحراف في بعض المذاهب الفقهية والعقائدية والحديث وغيرها من العلوم، فأدى ذلك إلى ظهور الفرق الضالة التي أنهكت جسد الأمة، كذلك ظهرت بعض المذاهب والطرق الصوفية فشذت عن الأصل.

وعلى هذا فلا يجوز لمسلم عاقل أن يحاسب التصوف والطرق الصوفية على هؤلاء الزنادقة ويترك الأصل الصحيح، والتصوف باق بجذوره الممتدة لتصل إلى عصر السلف الصالح وثابت، ولن تهزه ريح أعداءه الحاقدين، ولا يضره من خالفه من أبناءه وشذ عن أصوله حتى يأتي أمر الله تعالى.

ويجب أن نعلم أن الطرق الصوفية في حقيقتها هي عبارة عن اجتهاد من قبل أئمة الطرق للوصول إلى أفضل وأسرع وأقرب وأقوى وأضمن الطرق والسبل والمناهج والأساليب الموصلة لله عز وجل، ومن الطبيعي الاختلاف بين أهل الاجتهاد حسب الأزمنة والأمكنة والأشخاص، ولكن تبقى الآليات

والمصادر والتشريعات والأسس والقواعد واحدة وهي الكتاب والسنة ومنهج السلف والأئمة والعارفين، وكلها تجتمع على غاية واحدة وهي تزكية النفس وسلامة القلب والوصول إلى رضا الله عز وجل واتباع المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ويختلفون بالنسبة للأذكار والأوراد والآداب وأساليب التربية والمجاهدة، وهذه هي الحقيقة التي يحاول أعداء التصوف تجاهلها وكل ذلك للوصول لشيء واحد وهو جعل الطرق الصوفية فرقة تفرقت لعدة فرق للحكم عليها بالضلال، ولكن التصوف ليس فرقة بل هو منهج ومذهب سلوكي تربوي يتحقق به الوصول لتطبيق روح الشريعة، وقد وضعنا هذا جيداً في المبحث الأول من الكتاب لمن له قلب يعقل ويفهم الحق.

وبعد كل هذا التوضيح يظهر لنا أن من كانت غايته الحق! فالحق أبلجُ ظاهراً ساطعاً، كسطوع الشمس في رابعة النهار لا يزيغ عنه إلا ضال مضل، ومن أراد الباطل فلا يبحث إلا عن الشبهات عافانا الله تعالى وإياكم.

خاتمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه وعونه تبلغ الغايات، والصلاة والسلام على سيد السادات، ومنتهى الغايات، سيدنا ومولانا محمد فخر الكائنات، وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد: فأقول أنا العبد الفقير إلى رحمة ربه السيد الشريف مخلف بن يحيى العلي الحذيفي القادري الشافعي الحسيني، قد فرغت بفضل الله تعالى من تمام هذه الرسالة المباركة وذلك في رحاب منزلي الكائن في محافظة الإسكندرية، في يوم السبت التاسع عشر من شهر ربيع الأول لسنة ألف وأربعمائة وأربع وأربعين للهجرة، الموافق للخامس عشر من شهر تشرين الأول لعام ألفين واثنين عشرين للميلاد، فأسأل الله المولى عز وجل أن يجعل فيه الخير والنفع لكل من قرأه، وأن يجعله في صحيفتي وصحيفة والذي وصحيفة مشايخي، وأن يتقبله مني بقبول حسن، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

خَادِمُ الطَّرِيقَةِ القَادِرِيَّةِ العَلِيَّةِ

مُخْلِيفُ العَلِيِّ الحُذَيْفِيِّ القَادِرِيِّ الحُسَيْنِيِّ

مِصْرَ - الأَسْكَندَرِيَّةِ: ١٩/٣/١٤٤٤هـ - ١٥/١٠/٢٠٢٢

فهرس الكتاب

- ٥ مقدمة المؤلف ❁
- ٦ تعريف التصوف والصوفي. ❁
- ١١ تعريف الصوفي. ❁
- ١٤ تاريخ نشأة التصوف. ❁
- ٢٥ موضوع علم التصوف. ❁
- ٢٧ غاية علم التصوف. ❁
- ٢٨ ثمرة علم التصوف. ❁
- ٢٩ مكانة علم التصوف. ❁
- ٣٢ نسبة علم التصوف. ❁
- ٣٨ حقيقة علم التصوف. ❁
- ٤٠ أقوال العلماء في التصوف. ❁
- ٤٦ أقوال العارفين في التصوف. ❁
- ٥٣ خصال علم التصوف. ❁
- ٥٤ أصول منهج التصوف. ❁
- ٥٥ أركان منهج التصوف. ❁
- ٥٩ استمداد التصوف وميزانه. ❁
- ٦٥ أدعاء التصوف. ❁
- ٧٢ تعدد الطرق الصوفية. ❁
- ٨٠ خاتمة الكتاب. ❁
- ٨١ فهرس الكتاب. ❁